بسم الله الرحمن الرحيم

المرأة في شعر إبراهيم طوقان

دراسة موضوعية

د. نبيل خالد أبو علي

عميد البحث العلمي -الجامعة الإسلامية

غزة -فلسطين

١٩٩٨م

أما قبل :

لم يغفل الدرس الأدبي الحديث اسم إبراهيم طوقان ، ولم يغمط أشعاره السياسية والوطنية حقها ، كما لم يسقط أشعاره الغزلية من حسابه ، ولكن الملاحظ أن الاهتمام بشعره جملة لم يكن موازياً لمكانة ذلك الشعر وقيمته الموضوعية والفنية ، كما أنه لم يكن مماثلاً للاهتمام بشعر قرنائه من الشعراء العرب . أما الاهتمام بشعره الغزلي فقد انحصر في حدود نظرة مسبقة وحكم قديم على أشعار مروية تنسب لإبراهيم ، موصوفة بالإباحية والمجون ، ونظرة متعجلة وحكم جائر أصدره بعض دارسي شعره الذين تأثروا بتلك النظرة وبما أشاعه جلساء إبراهيم من أخبار جلساتهم الماجنة وأشعار إبراهيم الإباحية التي تداولوها في تلك المجالس ، من ذلك ما نراه من زعم أحد دارسي شعره ، أن انحسار شهرته وقلة الاهتمام بشعره مرجعه أنه . أي إبراهيم . " أهدر فيضاً وافراً من جيد شعره في مالا يقره الذوق العام، ولا يسمح المجتمع ولا الدين الإسلامي بنشره ، ومن ثم فقد قتل هذا الفيض الزاخر من إبداعه الذي كان بالإمكان أن يوصله إلى أعلى مراتب الشهرة ، لو أنه سخره في خدمة معان إنسانية أو وطنية أو جمالية .. " ([1])

إن مثل هذا الرأي المتعجل لم يصدر عن دراسة متأنية لأشعار اشتمل عليها ديوان إبراهيم ، وإنما هو صدى لآراء بعض أصدقاء إبراهيم وجلسائه ([2]) . وهو رأى ينطوي على قدر كبير من الخلط والجور ، حيث نرى الخلط في حكمه على ذلك الشعر بالجودة رغم أنه لا يدخل تحت لواء الشعر الذي يقره الذوق العام ، ولا أدري كيف يحكم بالجودة على شعر لا يقر الذوق العام معانيه !! ومع ذلك فقد حسم النقاد القدماء هذه القضية حينما تصدى غير واحد منهم لمن عاب على امرئ القيس بعض معاني شعره الغزلي الذي تعرض فيها للحامل والمرضع .. ، ومن هؤلاء ابن قتيبة الذي برهن على صحة تلك المعاني وصدقها ([3]) ، وقدامة بن جعفر الذي برر حديثه عن صدق تلك المعاني وصحتها بقوله : " وليس فاحشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه ، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلاً رداءته في ذاته " ([4]) .

أما جور ذلك الرأي فنراه أولاً في اعتراف صاحبه الضمني بعدم الاطلاع على تلك الأشعار؛ لأنها لم تنشر حيث لا يسمح المجتمع والدين بنشرها ، ونراه أيضاً في جعله ذلك الشعر من

([1]) الفجر الأدبي ، مجلة أدبية شهرية تصدر في القدس ، العدد ٣٥ ، شهر آب ١٩٨٣، ص٣٨ .

([2]) انظر . مثلاً . : البدوي الملثم ، الغواني في شعر إبراهيم طوقان ، دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٧ ، ص١٦ .

([3]) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد شاكر ، الطبعة ٣، دار المعارف١٩٧٧م ، ١٤١/١ .

([4]) قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، الطبعة الأولى ، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٩٧٩ ، ص٦٦

أسباب خمول ذكر الشاعر ؛ لأنه لم يسخره في خدمة معانٍ إنسانية ، أو وطنية أو جمالية ، ولا أدري بما يمكن أن نصف جيد معاني شعر الغزل إذا لم نصفها بالجمال والإنسانية ؟ كذلك لو صح ما ذهب إليه صاحب ذلك الرأي لانصرف الدارسون عن شعر الغزل الصريح ، ولخمل ذكر العديد من الشعراء كامرئ القيس وأبي نواس وبشار ..

وبعد ؛ فقد اهتم أصدقاء إبراهيم بدراسة شعره ، والتنبيه على مكانته الأدبية ، وكان من بين دراساتهم العديدة (٥) دراستان أعدهما البدوي الملثم . يعقوب العودات . وثيقتا الصلة بموضوع شعره الغزلي ، تناول في الأولى منهما علاقات إبراهيم النسائية حسب واقعها التاريخي كما وعاه من خلال أحاديث إبراهيم عن مغامراته مع النساء ، وقد استرجع ذلك من مذكراته التي قال عنها : " قد ضمنتها نتفاً من غراميات طوقان ، تلك الغراميات التي لم تنشر في الديوان ، وقد روى لي إبراهيم تفاصيلها ، وسمى أشخاصها ، وأشار إلى زمانها ومكانها"(٦). وقد انطلق في هذه الدراسة من فكرته المسبقة عن عبث إبراهيم ومجونه فقال : "قصرتها على غزله وتشبيبه في سرب من الغواني .. وفيها صورت معاركه الدامية الحمراء وتهيامه بالغيد الملاح ، وصباباته وأحلامه بالهوى الفاضح " (٧) .

أما الدراسة الثانية فكانت بعنوان " إبراهيم طوقان في وطنياته ووجدانياته " ، وقد صدرت بعد دراسته الأولى بسبع سنوات ، ولم يخرج فيها عن دائرة المنهج التاريخي الذي اتبعه في دراسته السابقة ، وقد قسم الحديث فيها إلى قسمين : تحدث في الأول منهما عن حياة إبراهيم طوقان ومناسبات شعره السياسي والوطني ، وفي القسم الثاني تحدث عن وجدانياته ومناسبات

---

(٥) وأبرز تلك الدراسات دراسة عمر فروخ " شاعران معاصران " المنشورة عام ١٩٥٤ ، وهي من أهم ما كتب عن ابراهيم وشعره ، ذلك لأن عمر فروخ صديق إبراهيم الحميم كان مطلعاً على جميع جوانب حياته العامة والخاصة ، مواكباً لميلاد كل قصيدة من قصائده تقريباً ، ملماً بمعظم ما كتبته الصحف آنذاك عن حياة إبراهيم وقصائده ، وقد كانت هذه الدراسة المصدر الرئيس لكل ما كتب عن إبراهيم وشعره بعد ذلك . وقد قسم المؤلف دراسته إلى قسمين كبيرين ، تناول في القسم الأول منهما مراحل حياة إبراهيم منذ ميلاده حتى مماته ، وفي أثناء ذلك تحدث عن مناسبة العديد من قصائده ، وأورد نماذج من شعره ، ثم انتهى إلى استعراض موضوعات شعره والتنبيه على خصائصه العامة . وبالمنهج نفسه تحدث في القسم الثاني عن أبي القاسم الشابي وشعره .

وثاني تلك الدراسات دراسة الدكتور زكي المحاسني الموسومة بـ " طوقان شاعر فلسطين " التي أصدرها عام ١٩٥٥ م ، وقد تحدث فيها عن حياة إبراهيم وبيئته ، وتناول مقتطفات من شعره ووقف على سماتها ، ثم وازن بين بعض قصائده الوطنية وقصائد بعض معاصريه من الشعراء العرب ، ثم خلص إلى إبراز مكانة هذا الشاعر واستحقاقه لقب شاعر فلسطين .

(٦) الغواني في شعر إبراهيم طوقان ، ص١٦ .

(٧) السابق ، ١٦ .

قصائده الغزلية دون أن يضيف جديداً إلى ما ذكره في كتابه السابق .

وقد شكلت الآراء التي رددها جلساء إبراهيم ([٨]) ، والتي أقرها البدوي الملثم في دراستيه حجر الزاوية لجميع الدراسات التي تعرضت بعد ذلك . ولو لماماً . لشعره الغزلي ([٩]) ، حيث انطلقت جميعاً من منطلق ما وصف به شعره من مجون وعبث ونبو على الذوق العام وتطاول على العفة والدين ..

ولأن المرأة هي قطب شعر الغزل الذي احتل مساحة واسعة من إبداع إبراهيم ، ولأن حديث دارسي شعر إبراهيم قد انصب في مجمله على أنموذج واحد من النساء ، هو الأنموذج الذي نتخيل ملامحه من خلال الحكم السابق على غزله ولأن ذلك الحديث لم يكن في معظمه مبنياً على أشعار اشتمل عليها الديوان .. رأيت أنه من الضروري الوقوف على حقيقة واقع المرأة في عصر إبراهيم ، ثم استجلاء صورتها كما انعكست على صفحات شعره ، وذلك لتبيين صور النساء اللواتي عرفهن إبراهيم في حله وترحاله ، وصفات المرأة التي شغفت قلبه وسيطرت على وجدانه .

المرأة في عصر إبـراهيم طوقان :

تنوعت نماذج المرأة التي عاصرها إبراهيم ([١٠]) ، واختلفت مستوياتها الثقافية والاجتماعية والدينية ، وتنوعت بيئاتها وانتماءاتها ، الأمر الذي قد لا تسعفنا معه الدراسات التاريخية والبحوث الاجتماعية وحدها لاستجلاء واقع المرأة التي خبرها طوقان ، والتي اختمرت في فكره واختلجت في فؤاده قبل أن تنعكس على صفحات شعره ، لذلك كان لابد من اعتماد النصوص الشعرية التي صورت واقع المرأة في تلك الحقبة لاستكمال ما أغفله المؤرخون وعلماء الاجتماع من خفايا جوانب ذلك الواقع .

وإن كنت لا أزعم أن المرأة على مقاعد الدراسة هي الأنموذج الأول الذي التقاه شاعرنا في رحلة حياته ، فإنني أظن أنه الأنموذج الأكثر تأثيراً في تشكيل خلفية الشاعر عن المرأة وتحديد مشاعره تجاهها ..والمتأمل لواقع تعليم الفتيات آنذاك يلاحظ أن الاهتمام بالتعليم بشكل

([٨]) انظر : عمر فروخ ، شاعران معاصران ، الطبعة الأولى ، المكتبة العلمية . بيروت ١٩٥٤م،ص٣٠

([٩]) انظر : . زكي المحاسني ، طوقان شاعر فلسطين ، ط١، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٥٥، ص١٢٦

.. كامل السوافيري ، الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر ، ط١، الأنجلو المصرية ١٩٧٣، ١٢٧

. المتوكل طه ، الساخر والجسد . إبراهيم طوقان . ، الطبعة الثانية ، نابلس ١٩٩٤ ، ص٦١

([١٠]) ولد إبراهيم طوقان في مدينة نابلس بفلسطين عام ١٩٠٥ م ، وتوفي في الثاني من مايو عام ١٩٤١ م في المستشفى الفرنسي في القدس .

عام قد اتضحت معالمه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، كما يلاحظ أن خروج الفتيات والفتيان إلى المدارس في مدن وقرى فلسطين أصبح مألوفاً في السنوات الأولى من القرن العشرين ، ويكفي في هذا المقام أن نذّكر بأن مجموع عدد المدارس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان في نابلس والقدس وعكا ١٢٨ مدرسة ، اشتملت على ٣٠٥ من مامعلمين والمعلمات ، و٤٣٦٣ تلميذاً وتلميذةً ، وقد بلغ عدد المعلمات منهم ٦٨ معلمة ، وعدد التلميذات ١٣٨٨ تلميذة ، بينما أصبح عدد المدارس الحكومية في المناطق الثلاث نفسها في مطلع القرن العشرين ٥٠٩ مدارس ، منها ٢٥ مدرسة تحتوي على صفوف للمرحلة الثانوية ، كذلك كان هنالك ثلاث مدارس ثانوية عربية حكومية ، هذا بالإضافة إلى عدد من المدارس الثانوية العالية للطوائف والمذاهب الدينية غير الإسلامية والجاليات الأجنبية في فلسطين ، كما كان للعرب مؤسستان للتعليم العالي ، هما : الكلية العربية ، والكلية الرشيدية ، ومدرسة الحقوق التي كانت للعرب واليهود على السواء (١١) .

وقد أمت الفتيات الفلسطينيات تلك المدارس ، واطلعن على علوم وثقافات شتى ، وتأثرن ببعض العادات والمفاهيم الأجنبية ، وجذب الكثير منهن بريق بعض الحضارات التي عكستها مدارس الطوائف والمذاهب الدينية غير الإسلامية ، ومدارس الجاليات الأجنبية ، وقد اتضح أثر ذلك الاحتكاك الثقافي والحضاري في مختلف وجوه الحياة ، وقد تجلى ذلك بوضوح في المدن الفلسطينية الكبرى بشكل خاص ، حتى لقد وجدنا من يتذمر من إفراط المرأة الفلسطينية في التشبه بالأجنبيات ، حيث هاله سلوك الفتيات ومظهرهن اللذان لم تألفهما البيئة الفلسطينية من قبل ، من ذلك . مثلاً . اسكندر الخوري البيتجالي الذي يقول (١٢) :

راعنا في الشرق توظيفُ البناتْ في الدَّوائِرْ
وركوب السَّيدات العَجَلاتْ في الحَواضِرْ
وامتِطاهُن الجِيادَ الصَّافناتْ كالقَساوِرْ
بِلباس لا يَقينا العَثَراتْ والمَخاطِرْ
بينَ ثوب فيه جِسمُ الغانياتْ باتَ ظاهِرْ
ونُهود منه تَبْدو كالمهاة وهِي نافِرْ
وصُدور عاريات فاتِناتْ للنواظر
و" بناطيل " على رغم النُّهاة والأوامِرْ
لبستهـا هـذه المستـرجـلات كـالعسـاكـرْ

ثم نجده يحض الفتيات الفلسطينيات على عدم التخلق بأخلاق الأجنبيات أو التشبه بهن ، ويشكو

---

(١١) عبد الرحمن ياغي ، حياة الأدب الفلسطيني الحديث ، ط٨، دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨١، ٦٢ . ٧٧

(١٢) كامل السوافيري ، الأدب العربي المعاصر في فلسطين ، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٩، ص٩٤ .

من نتائج ذلك التشبه بالأجنبيات بقوله ([١٣]) :

يا نِسانا ويا بَنَات نِسانا حسْبكنَّ اتّباع طُرْق الضَّلال
إن هذي الأَزْياء هدَّت قُوانا دعننا منها " يا بنات الحلال "
كل يوم زِيّ جَديد غَريب مُتلِف للعُقول والأَموال
ما جمالُ النساء في الزِّي كلاّ لا ولا في صَبْوة أو دَلال
لا ولا الحسْـــن فـي ارْتفـاع كِعـاب إنّمـــا الحُســن فــي جَمــال الخِصـال

لقد اطلع شاعرنا على هذا الأنموذج من النساء المتفرنجات ، وانطبعت صورهن في وجدانه منذ نعومة أظفاره ، وإن كانت حداثة سنه وهو في المرحلة الابتدائية في نابلس لم تؤهله للتفاعل مع هذا الأنموذج من النساء ، فإن حياته في مدينة القدس إبان دراسته الثانوية قد هيأت له هذا الأمر ، ذلك لأن مدينة القدس أكثر اتضاحاً ورحابة في آفاقها الحضارية والاجتماعية من مدينة نابلس ، ونماذج المرأة ذات الأصول المختلفة أكثر تنوعاً ، إذ اشتملت القدس على أكثر من ثلاثين مدرسة لمختلف الجاليات الأجنبية ، إضافة إلى مدارس المسلمين([١٤])، ولأن إبراهيم أصبح أكثر نضجاً واستجابة لحديث الصبابة والهوى ، وقد ساعد على ذلك ابتعاده عن رقابة الأهل وبيئتهم المحافظة ([١٥]) ، والتحرر النسبي الذي امتازت به مدرسة المطران الثانوية الداخلية التي أمضى فيها أربعة أعوام . من سنة ١٩١٩ . ١٩٢٣م .، ذلك التحرر الذي نستشف أبعاده من قول عمر فروخ : " إن إبراهيم لا يذكر مدرسة المطران من الناحية الأخلاقية بالخير أبداً " ([١٦]) ، ورغم أن مصادر الدراسة لم تحدثنا عن شيء يبرر رأي إبراهيم في تلك المدرسة من الناحية الأخلاقية إلا أنه يمكنني القول إن ما رآه إبراهيم في تلك المدرسة الأجنبية التي ارتادتها الحسناوات الغربيات ، سواء كمعشوقات لالتقاء العاملين في تلك المدرسة([١٧]) ، أو كمصليات في كنيسة سان جورج التابعة للمدرسة ، كان وراء ذلك الرأي ، إذ من البدهي أن يبدو مظهر وسلوك الفتاة الغربية التي كانت تتردد على تلك المدرسة شاذاً وخارجاً عن القيم الأخلاقية إذا ما قيس بمظهر وسلوك الفتاة الفلسطينية التي رآها إبراهيم في البيئة النابلسية المحافظة ، ولعلّ قصائد

([١٣]) السابق ، ص٩٥ . هذا ويشتمل ديوان إسكندر الخوري على العديد من النماذج التي يتحدث فيها عن تشبه العربيات بالأجنبيات .

([١٤]) حياة الأدب الفلسطيني الحديث ، ص٦٣ . ٦٥ .

([١٥]) شاعران معاصران ، ص١٨ .

([١٦]) السابق ، ص١٩ .

([١٧]) قد يكون اطلاع إبراهيم على بعض تجارب أساتذته الغرامية عاملاً من عوامل تكوين رأيه في الجانب الأخلاقي لتلك المدرسة . ومما يروى في هذا المجال اشتهار قصة غرام أحد الأساتذة بفتاة روسية . وقد قال إبراهيم شعراً في ذلك . . راجع : الغواني في شعر إبراهيم طوقان ، ص٢٤ .

صديقه عبد الكريم الكرمي التي تغزل فيها بحسناوات القدس أكثر توضيحاً لصورة هذا الأنموذج من النساء ، أنموذج المرأة اللعوب التي كانت تصادف الشباب فتؤجج مشاعرهم وتُصبِي قلوبهم ، وتذهب للصلاة في الكنائس فتفسد على المصلين صلاتهم (١٨) :

تميــس بيـن العـذارى الفاتنـات كما   يـروم غـانيـة الآمـال مفـؤودُ !
لما تراءت على "الطور" ارتمى صعقاً   من شام طلعتها والقلب معمودُ !
قالت جمـوعُهمُ : " هذا المـلاك هـوى   مـن السمـاء فتقـديس وتمجيـد

ولم يكن إبراهيم بدعاً في تلك البيئة ، بل تفتح قلبه للمرأة ، و " جعل يحاكي شعراء الغزل في وصف الحسان اللاتي كان يصادفهن في طريقه ، وأكثرهن من الغربيات " (١٩) ، فمن اللواتي صادفهن . وهو في المرحلة الثانوية . كريمتي السيد " فستر " رئيس كولونية الأمريكان في القدس ، فمدح الصغرى و" شبهها بالغزال النافر ، وشهّر بشقيقتها الكبرى إذ شبهها بالفيل الضخم الجثة .. "(٢٠) ومن نماذج المرأة الأجنبية التي وجدت في فلسطين في عصر إبراهيم ، بائعات الهوى ، اللواتي جلبهن الانتداب معه لإفساد الشباب ، حيث عملن على جذب الشباب إلى الملاهي ، وصرفهم عن التفكير في شئون بلادهم وما يتربص بها ، وقد كان لهذا الأنموذج من النساء الأجنبيات أثره السيئ على المتعطشين إلى العبث والابتذال من بعض ذوي المال والجاه ، وقد حذر الشعراء من خطر أولئك النسوة ومن عواقب السير في طريق الغواية والانصراف عن مقاومة العدو ، من ذلك ما نراه في قول الشاعر مطلق عبد الخالق (٢١) :

مرقص عابثٌ يعج عجيجاً !   كل ما فيه جلبة وصياح !
غاضَ ماءُ الحياء فيه وأضحى   كل شيء في جفونه يستباح
جسد داعر ، وجلد سميك   دونه في " السماكة " التمساح
فيه " رفكا " وفيه " ليزا " وليلي   وخزامى ، ونرجس ، وأقاح (٢٢)
إن رقصن فرقصهن وثوبٌ   أو تغنين ، فالغناء نباح
صادقات الخيال يعرفن ممن   تستغل الأموال والأرباح
أيها المدلجون في حلكة الليـ   ـل نشاوى اللذات ، أين الرواح
قـد هـدمتـم معـاقـلاً وحصونـاً   وأتحتـم للخصـم مـالا يتــاح
خلٌ بائدٌ ، وجهلٌ عتيدٌ   وبلادٌ تعبثُ فيها الرياح

---

(١٨) الغواني ، ص٢١ .

(١٩) طوقان شاعر فلسطين ، ص٢٣ .

(٢٠) الغواني في شعر إبراهيم طوقان ، ص٢٤ .

(٢١) ديوان الرحيل ، طبعة دار المستقبل العربي ، القاهرة (بدون) ، ص١٢٠ . ١٢١ .

(٢٢) يشير إلى الفلسطينيات اللواتي جارين الأجنبيات حيث كنى عنهن بِ " ليلى وخزامى ، ونرجس .

كافحوا هذه الميول وثوبوا طابَ في هذه الليالي الكفاح
طـالمـا أنتـم أسـارى هـواكـم ليـس يـرجى لـذي البـلاد نجـاح

أما الأجنبيات اللواتي حضرن مع البعثات التبشيرية والجاليات الأجنبية التي أدارت بعض المرافق الحيوية في فلسطين كالمستشفيات والمدارس الأجنبية وغيرها .. ، فقد تنوعت مشاربهن ، واختلفت طرائق ودرجات تأثيرهن في وجوه الحياة المختلفة ، سواء التأثيرات الثقافية والحضارية ، أو السلوكية والمظهرية ([٢٣]) .. ، وقد رأينا صورهن وصور مَنْ تأثرن أو تشبهن بهن تنعكس على صفحات شعر إبراهيم وغيره من معاصريه ، وفي ديوان إبراهيم صور عديدة تمثل هذا الأنموذج من النساء ، من ذلك صورة الممرضة الروسية التي كانت تحقنه بدواء القرحة ، يقول ([٢٤]) :

يا حلوة العينين يا قاسية سرعان ما أصبحت لي ناسية
أما أنا فلست أنسى يداً ناعمةً تجود بالعافية
لئن شفي الطب ضني عارضاً فمهجتي أنت لها شافية
وإبرة الآسي على نفعها أفعل منها نظرة ساجية
قيصرة الحسن ألا اشتكي إليك من جورك يا طاغيةْ
هـل كـان نسيـانـك لـي هفـوة أم خطـة أشـراكُهـا خـافيـةْ

وقد زخرت دواوين شعراء تلك الحقبة بكل صور النساء الأجنبيات ، سواء بائعات الهوى ، أو اللواتي أتين مع البعثات التبشيرية والجاليات الغربية أو الروسية ، حيث اختلطن جميعاً بالشارع الفلسطيني ، وأغوى سلوكهن ومظهرهن وصنوف زينتهن طائفة من الشبان إضافة إلى العديد من النساء اللواتي تشبهن بهن ، ومما قاله الشعراء في النساء الأجنبيات والمتشبهات بهن ، نذكر وصف مطلق عبد الخالق لغانيات طبريا الذي يقول فيه ([٢٥]) :

يا لذكرى طبريا إن فيها غانياتْ
عابثات بالقلوب مُضحكاتٌ مُبكياتْ
سائراتٌ في الليالي الـ مظلمات الداجياتْ
طائراتُ اللب لا يمشين إلا ضاحكاتْ
تـــارة يـحكيـن هماً وأوانـــاً معـلنـــاتْ

مَنْ تفته الحركات لم تفته اللفتاتْ

([٢٣]) راجع : حياة الأدب الفلسطيني الحديث ، ص٦٢ . ٧٧ .
([٢٤]) ديوان إبراهيم ، الطبعة الأولى ، دار الشرق الجديد ، بيروت ١٩٩٥ ، ص١٣٠ .
([٢٥]) ديوان الرحيل ، ص٩١ .

والخدود الناظرات والنهود البارزات !
والقدود المائسات والزنود المعلمات !
والعيــون النــاظــرات والشفـــاه النــاطقــات !

ووصف إسكندر الخوري البيتجالي للمرأة اليهودية المهاجرة إلى فلسطين الذي يستهجن فيه مظهرها و يحذر من سوء خلقها ، بعد أن أصبحت أنموذجاً ملفتاً في شوارع القدس ، ويحث العربيات على اِلتزام الفضيلة وعدم التشبه بها ، حيث يقول ([٢٦]) :

بارزاتِ النُّهودِ حُمْرَ الخُدودِ عارياتِ الصدورِ ضُمْرَ القُدودَ
يتخَطَّرْنَ في الشوارع تِيهاً بحُليً من أَساورٍ وعقودِ
وبُرودٍ شفَّافةٍ من حريرٍ شف عما اختفى وراء البرود
سِرنَ يُرْسلْنَ أسهماً من عيون فاتنات ما بين زُرْقٍ وسُودِ
يتلفتنَ تارةً بازدراءٍ ويُقَهْقِهنَ تارةً كالوليد
بينهن الحسناء من خادعوها بهدايا الهوى وحُلوِ الوُعود
والتي خادعتْ وما خادعوها ببياضٍ وحُمرةٍ في الخدود
من بناتِ اليَهودِ جِئْنَ إلينا من أُروبَّا بكلِّ زيٍّ جديد
مشهدٌ من مشاهد القدس هذا في غِنىً عن دلائلٍ وشهود
غانياتِ الأعرابِ مهلاً فإنَّا في احتياجٍ إلى الصلاح شديد
يا فتاة البلاد كم في بلادي لبلادي كم من عدُوٍّ لدود
احذري الزيَّ هذِّبي الطفلَ كوني مَثَلَ النُّبْلِ والتُّقى للوَليد
كي يكون الوليد يوماً رشيداً كي تكوني نظيرَ أُمِّ الرشيد
كـي يكـون الوِلْـدانُ يــومــاً أُسوداً هل بـلادٌ ضِمَيـتْ بظــلِّ الأُســودِ؟!

تلك كانت صورة المرأة الأجنبية في المدن الفلسطينية بمشاهدها المتنوعة ، وانعكاساتها على بعض النسوة اللواتي انبهرن ببهرج الحضارة الوافدة في بعض المدن الكبيرة التي كانت تعج بالأجنبيات كمدينة القدس مثلاً .

أما المرأة الفلسطينية في المدن والحواضر الفلسطينية فلها صورها التي نراها من خلال واقعها المحافظ كربة بيت ، أو التي تنعكس من خلال نشاطها الاجتماعي والثقافي والسياسي . ولأن المقام لا يتسع للحديث عن وجوه نشاطات المرأة الفلسطينية ولا لصورها التي تتجلى من خلال تلك النشاطات ، سواء في حقل التعليم أو التمريض أو في الجمعيات الخيرية والاتحادات النسائية وما عقدته من ندوات أو مؤتمرات .. ([٢٧]) ، فإنه قد تجدي الإشارة إلى جانب من

([٢٦]) ديوان العنقود ، ص٦٩ ، ٧٠ .

([٢٧]) راجع : غازي الخليلي ، المرأة الفلسطينية والثورة ، بيروت ١٩٧٧ ، ص٢١ .

جوانب نشاطها الوطني ، ذلك النشاط الذي نلتمس صداه في قصائد شعراء تلك الحقبة ، من ذلك مثلاً قصيدة " عودي لخدرك " التي نظمها محيي الدين الحاج عيسى الصفدي في نابلس في أوائل ثورة ١٩٣٦م إثر مظاهرة اشترك فيها فريق من نساء المدينة ، ربات بيوت وطالبات وموظفات .. ، إذ يخاطب الفتاة الفلسطينية بقوله ([٢٨]) :

عُودي لخدرك يا أختَ المَهَا عُودي ... في الحيّ ما شئْت من شُوْسٍ ومن صِيد
تباركَ الُله إذا أَقْبلتِ مُغضَبَةً ... والحسنُ يُشرقُ من طَرف ومن جِيد
فكفكفي الدَّمعَ من عينيك واطّرحي ... عنكِ الأسى لتواسي قلب معمود
ودونَك الحيُّ جُرِّي في مسارحه ... ذيلَ المفاخر بين الخُرَّد الغِيد
أما رأيتِ ليوثَ الحيِّ قد برزوا ... حمرَ المناصلِ فوقَ الضُّمَّرِ القودِ
غادين للموت لا يلوون أو يصلوا ... إلى سبيلٍ من العلياء محمود
فتيانُ قومِك كم خفُّوا لنائبةٍ ... في كل يومٍ من الأيامِ مشهود

ومن ذلك أيضاً تصوير وديع البستاني لدور المرأة الفلسطينية في إضراب عام ١٩٣٦ ومشاركتها الفعالة جنباً إلى جنب مع الرجل في أحداث الحياة السياسية ([٢٩]):

ثار الشباب وثار الشيب قبلهم ... والصبية احتشدوا للحرب إن لعبوا
وللنساء بلاء في معامعها ... والنفي آنق ما أولاهم الأدب
ويسجنون وقد ضاقت سجونهم ... ويدفنون وكادت تزحف الترب

أما أنموذج المرأة القروية فهو الأنموذج الذي يمثل غالبية نساء فلسطين ، ذلك لما هو معلوم من أن حوالي ٧٠% من الفلسطينيين كانوا قرويين يعملون في الزراعة .. ([٣٠])، وقد كانت المرأة القروية أقل حظاً من التعليم والثقافة ، وأكثر بعداً عن رغد الحياة وبريقها في المدن ، إذ لا هَمَّ لها إلا مساعدة الرجل على ظروف حياته القاسية ، لذلك لا نكاد نرى انعكاس صورتها إلا في نطاق بيئتها المحافظة حيث وقوفها إلى جانب الرجل في عمله وفي نضاله ، فهي الأم

([٢٨]) محيي الدين الحاج عيسى ، ديوان من فلسطين وإليها ، الطبعة الأولى ، المطبعة السورية – حلب ١٩٧٥، ص ٣١،٣٢.

([٢٩]) د.عبد الرحمن رباح الكيالي ، الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، لطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧٥ ، ص١٢٧.

([٣٠]) انظر : – نبيل بدران ، الريف الفلسطيني قبل الحرب العالمية الأولى ، مجلة شؤون فلسطينية ، "مجلة شهرية تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية . بيروت" ، العدد السابع ، مارس ١٩٧٢، ص١١٦.

– هاني حوراني ، ملاحظات حول أوضاع الطبقة العربية العاملة في فلسطين في عهد الانتداب ، مجلة شؤون فلسطينية ، العدد الخامس ، نوفمبر ١٩٧١، ص١١٩.

والزوجة والابنة والأخت في المنزل ، وهي الفلاحة في الحقل ، وهي المحرضة على الثورة ومواجهة العدو ، وهي المشاركة في الثورات حينما تعم القرى والنجوع الفلسطينية ، وهي في عيون الشعراء أم الشهيد ، وزوج السجين ، وهي المنكوبة أو المشردة أو البائسة أو الجائعة ..([٣١]).

وشواهد ذلك كثيرة نورد منها قول مطلق عبد الخالق في تصوير بؤس امرأة تواجه أعباء الحياة بأطفالها الصغار بعد أن فقدت زوجها ([٣٢]):

هذه أمّ صغار فقدت بعلها ، تبغي لأطفال غذاء
تسفك الدمعة من مهجتها زفرة حرّى وناراً ودماء
يـــا لهـــا بائســـة حـــائـــرة تكتـــم البـــؤس وتخفيـــه حيـــاء

وفي تصوير المرأة وقد حلت بها المصائب ، نورد قول عبد الرحيم محمود في تصوير نساء قرية عنبتا حينما وصلهن نبأ استشهاد القائد المجاهد عبد الرحيم الحاج محمد عام ١٩٣٩([٣٣]):

برزتْ فيها المصوناتُ ضحى صارخاتٍ قارعاتٍ للخُدود
وا حبيبَ الأمة قد يتَّمتنا يا أبا كل فتاةٍ ووليد
صَعَدوا من لَوْعـــة زَفْراتـــهم فأذابـتْ قـاسـي الصَّخر الصلود

أما عبد الكريم الكرمي فيستصرخ الأمة العربية مقدماً لها مشاهد من معاناة الفلسطينيين ، فيبرز من بين ما يقدم من صور صورة المرأة المنكوبة أثناء حلول المصيبة بفقد الأهل والخلان ، وصورتها وهي تجود بروحها بعد أن طالتها يد العدو الغاشمة ([٣٤]) ، وصورة اليتيمة التي أعوزتها الحاجة بعد أن تخطفت أيدي المنون أهلها ([٣٥]):

أمالَ برأسكِ ذُلُّ السؤالِ ولا مِنْ سميعٍ ولا مِنْ مُجيب

([٣١]) انظر نماذج ذلك في : . طوقان شاعر فلسطين ، ص٨٠ .
. فدوى طوقان ، الديوان ، الطبعة الأولى ، دار العودة بيروت ١٩٧٨ ، ص١٤٦ . ١٤٧
. إبراهيم العلم ، فدوى طوقان ، الطبعة الأولى . القدس ١٩٩٢ .، ص٩٨ .
. الأدب العربي المعاصر في فلسطين ، ص١٠٠
. عبد الرحمن رباح الكيالي ، الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين ، ص١٥١.

([٣٢]) الرحيل ، ص١٠.

([٣٣]) ديوان عبد الرحيم محمود ، طبعة دار العودة ، بيروت١٩٨٧ ، ص١٣٢.

([٣٤]) ديوان أبي سلمى ، طبعة دار العودة ، بيروت ١٩٨٩، ص ٢٤، وقصيدة الشهيدة ص ٢٦٥.

([٣٥]) السابق ، ص٥٢.

تَغيبين عن أعين العاذلينَ وطيفُكِ عن خاطري لا يَغيب
تعيشينَ وحدكِ في غربةٍ فواحسرتا لليتيمِ الغريب

المرأة في شعر إبراهيم:

كان للمرأة حضور واضح وتأثير ملموس في حياة إبراهيم ، حيث نشأ في كنف أسرة كبيرة تتكون من أبيه وأمه وجده لأبيه وجدته لأمه ، وإخوانه : أحمد ويوسف ورحمي ونمر ، وأخواته : بندر وفتايا وأديبة وفدوى وحنان ، ورغم أنه ثاني إخوانه من البنين والبنات ([٣٦]) إلا أنه كان أكثرهم مكانة في نفس والديه وأفراد أسرته ، وذلك بسبب هزال جسمه ومرضه المزمن ([٣٧])، ورغم عدم كفاية المعلومات المتوفرة عن الجانب النسائي في تلك الأسرة المحافظة إلا أن النزر القليل الذي توفر لنا يكفي للدلالة على طبيعة حياة المرأة في تلك البيئة وماهية علاقة إبراهيم بها .

لقد كانت المرأة الطوقانية أسعد حظاً من غالبية قريناتها الفلسطينيات ، حيث وجدت في مدينة مدن فلسطين العريقة ، مدينة نابلس التي اهتم أهلها بالعلم والمتعلمين ، وعملوا على نشر نور العلم في مدن فلسطين وقراها ، ويكفي في هذا المقام أن نعلم أن "ثلث المعلمين في إدارة معارف حكومة الانتداب جاءوا من مدينة نابلس"([٣٨]).

لذلك كان من البدهي أن تنال تلك المرأة قسطاً وافراً من التعليم ، وأن يكون تأثيرها واضحاً فيمن حولها ، فأم إبراهيم ([٣٩]) . مثلاً . كانت شغوفة بالأدب العربي القديم وقصص البطولات العربية ، وقد انعكس ذلك على أهل بيتها حيث كانت تقرأ قصص عنترة وأبي زيد الهلالي وسيف بن ذي يزن على مسامع والد زوجها . داود آغا طوقان . وولدها إبراهيم الذي كان يلازم جده في الاستماع لتلك القصص ، الأمر الذي يبرر نضج الروح الوطنية عند إبراهيم منذ صباه ، وتدفق الأناشيد والأشعار الحماسية على لسانه بغزارة ([٤٠]). أما جدته لأمه التركية

([٣٦]) وهم على التوالي : أحمد ، إبراهيم ، بندر ، فتايا ، يوسف ، رحمي ، أديبة ، فدوى ، نمر،حنان.

([٣٧]) انظر : شاعران معاصران ، ص ١٨ .

([٣٨]) د. حسني محمود ، الثقافة القومية في فلسطين ، ص ٣٧.

([٣٩]) فوزية بنت أمين عسقلان ، وعائلة عسقلان من عائلات نابلس العريقة . عرفت بشغفها بالقراءة وولعها بالموسيقى والغناء . راجع : د. إبراهيم العلم ، فدوى طوقان ، ص ١٠.

([٤٠]) تقول أخته فدوى في توضيح تشجيع جدها وتأثير أمها في شاعرية إبراهيم : " وإنني لأمثل في خاطري ، ذلك الشيخ الوقور ، جدي لأبي ، رحمه الله متربعاً في كرسيه ، مشتملاً بعباءته ، وإلى جانبه حفيده الصغير إبراهيم ، يتقارضان الشعر والزجل (والعتابا) ما يعيه قلباهما . وإنني لأمثل إبراهيم في = = خاطري كما يصورونه لي ، واقفاً أمام جده يرتجل ما ينقدح عنه فكره الصغير يومئذ ، من قول يرسله في

الأصل فقد كانت سبب تعلق إبراهيم باللغة التركية حتى أجادها ونظم بها شعراً ([41]). ومن عمته كريمة استمد حب تلاوة القرآن وتدبر معانيه ([42]) .. إلى غير ذلك من تأثير أفراد أسرته بشكل عام والمرأة بشكل خاص ([43]).

وبالرغم من تأثير المرأة الطوقانية الواضح في حياة إبراهيم ، ووفاء إبراهيم لأفراد أسرته وحنوه على أخواته وخاصة فدوى التي كان يتعهد موهبتها بالرعاية والتأييد ، وحنوه على أمه وتعلقه بها ..([44]) إلا أن صورة المرأة الطوقانية لم تنعكس البتة على صفحات شعره ، حتى التي اختارها بعيني الشاعر لتشاركه حياته ، كما يقول في رسالته لصديقه عمر فروخ : "وأنت تعلم أنني أرفض كل الرفض ألا أكون شاعراً في اختيار عروستي ، وأنا أؤكد لك أنني كنت شاعراً كل الشاعر ، وأن العروسة لا تقل أبداً عن غادة هيفاء حسناء يبتدعها خيالي الغزلي .."([45]) ، لم تظفر ببيت واحد من شعره .

وهذه المفارقة التي نراها في عدم احتفال ديوان إبراهيم بصورة الأم الرؤوم ؛ والأخت الحنون ؛ والزوجة الوفية .. لا نرى لها تبريراً سوى تأثر إبراهيم بالشعراء القدماء الذين تربى على شعرهم ، الذين أغفل معظمهم ذكر الأم والأخت والزوجة في خضم اهتمامهم بنماذج المرأة

وصف حادث حدث في البيت ، فيه نكتة أو طرافة .. وذلك في عبارات تكاد تكون موزونة مقفاة ، يقلد فيها ما كان يستظهره في المدرسة من شعر أو ما يعيه قلبه من قصص عنترة وأبي زيد الهلالي وسيف بن ذي يزن ؛ تلك التي كثيراً ما أصغى إلى أمه وهي تقرأها لجده لأبيه ، في أمسيات الصيف الجميلة ، أو في ليالي الشتاء .. ". الديوان ص١٢

([41]) مقدمة الديوان ، ص١٢،١١.

([42]) البدوي الملثم ، إبراهيم طوقان في وطنياته ووجدانياته ، ص ١٩.

([43]) نال أفراد أسرة إبراهيم قسطاً متفاوتاً من التعليم ، فأحمد الأخ الأكبر . مثلاً . كان عالماً رياضياً ، وكان مهتماً بإبراهيم الأخ المريض الذي يحتاج إلى متابعة ورعاية ، وإبراهيم الشاعر الذي يحتاج إلى التشجيع والاهتمام ، وهو الذي أشرف على طباعة ديوان إبراهيم بعد وفاته ، وكان ليوسف نشاط علمي خاص واهتمام بشئون التجارة ، وقد كان براً بأخيه إبراهيم وأسرته ، يهتم . هو وأخوه رحمي . بشئون حياتهم ويوفر للأسرة احتياجاتها ..، أما البنات فكن جميعاً أصغر سناً من إبراهيم وقد كان إبراهيم براً بجميع أفراد أسرته ، وقد حازت فدوى الشاعرة اهتمام إبراهيم وتشجيعه حتى حققت بعد ذلك شهرة واسعة في عالم الإبداع الشعري .. راجع : شاعران معاصران ، ص١٥-٦٢.

([44]) انظر : زكي المحاسني ، طوقان شاعر فلسطين ، ص ٢٥٥ وما بعدها .

([45]) هي سامية بنت قاسم عبد الهادي ، وهي فتاة مثقفة تلقت علومها في كلية البنات الإنجليزية ودار المعلمات في القدس ، عرفها إبراهيم في أثناء عمله في الإذاعة الفلسطينية حيث كانت تتردد على الإذاعة لإلقاء الأحاديث الإذاعية ، فأعجبته وتزوج بها عام ١٩٣٦م . راجع : شاعران معاصران ، ص ٥٢.

المعشوقة ومحاسن جسدها ([٤٦]).

أما نماذج المرأة وصورها كما تجلت في الديوان فيمكن تقسيمها إلى قسمين ؛ أولهما : صورة المرأة في شعره الوطني ، وثانيهما : صورتها في شعره الغزلي ، مع ملاحظة اقتصار تناوله للمرأة في الجانب الوطني على البيئة الفلسطينية والمرأة الفلسطينية على هامش الحياة السياسية والنضالية دون التعرض لدورها المباشر ، أما شعره الغزلي فقد تعددت بيئاته وتعددت نماذج وصور المرأة وجنسياتها ما بين فلسطينية وعربية وأجنبية .

المرأة في شعره الوطني :

لم يشتمل القسم الوطني من ديوان إبراهيم على الكثير من نماذج وصور المرأة في معترك الحياة السياسية والنضالية ، ولم يسع إلى إبراز دورها الذي تحدث عنه معاصروه([٤٧])، سواء مشاركتها في المظاهرات التي كانت تجتاح مدن وقرى فلسطين ، أو دورها النضالي وتحريضها الرجال . الزوج والابن والأخ .. . على التصدي للغاصبين ومحترفي السياسة والمخادعين ([٤٨]) ، وكل ما نجده من صور المرأة في شعر إبراهيم الوطني يقتصر على مشاهد معاناتها ، سواء أكانت صابرة على البلاء وما حل بالأهل والأبناء ، أم مولولة من هول المصائب وآثارها ، أم منكوبة تعاني التشرد والضياع .. ، فصورة المرأة الصابرة نراها في مثل قوله في أم الشهيد ([٤٩]):

قسماً بأُمِّكَ عند موتِ كَ وهي تهتفُ بالنَّشيدِ
وترى العزاءَ عَنْ ابنِها في صيتِه الحسنِ البعيدِ
مـــا نـــال مَـنْ خـدمَ البـــلادَ أجَـــلَّ مِـن أجْـرِ الشـهيـــدِ

وصورتها وقد اجتاح الزلزال مدينتها . نابلس . فبدت باكية حزينة مع أهل المدينة بعد أن كانت تنعم برغد العيش ، في مثل قوله ([٥٠]) :

أدموعُ النساءِ والأطفالِ تجرحُ القلبَ أم دموعُ الرجالِ
بلدٌ كان آمناً مطمئناً فرماه القضاءُ بالزلزالِ

([٤٦]) راجع : خليفة التليسي ، الشابي وجبران ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٤،ص١١٠.

([٤٧]) انظر : هاشم صالح مناع ، القضايا القومية في شعر المرأة الفلسطينية ، الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٨٤، ص١٠٧– ١٥٠ . . والكيالي ، الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين ، ص١٢٧ .

([٤٨])انظر : زكي المحاسني ، طوقان شاعر فلسطين ، ص٨٠.

([٤٩]) الديوان ، ٤٣.

([٥٠]) الديوان ، ١٥٣–١٥٤.

هزَّةٌ ، إثر هزَّةٍ تركته طللاً دارساً من الأطلالِ
كان (عيبالُ) من صدى الأنـ ـس يهتزّ فماذا سمعت في عيبال([51])
كان (جرزيم) منزهاً والغواني في ظلال منه وماءٍ زلال([52])
أدمـوع عيـونـه ؟ أصبَـاه زفـرات الأرامـل والأثكـالِ

وتصوير معاناتها بعد أن فقدت الابن والمعيل والأهل فبدت مشردة بلا مأوى تعاني الفقر والجوع ([53]) :

طغت الحربُ خمسة ما دهتنا كثوانٍ مَرَّتْ بغير قتالِ
ووجوه المنون شتَّى ، فبانت كلُّها عند هذه الأهوالِ
من وحيدٍ لأمِّه وأبيه جمعوه مفرَّق الأوصالِ
وفتاةٍ لاذتْ بحقويْ أبيها جزعاً ، وهو ضارع بابتهالِ
ههنا نسوة جياع بلا مأوى سترن الجسوم بالأسمالِ
ههنا أسرة تهاجر والغمُّ بديـ ـل الأثاث فوق الرحالِ

هذا كل ما وجدناه من صور المرأة في شعره الوطني ، حيث اقتصر على أنموذجين ، تعلق أحدهما بالصورة المشرقة التي اشتهرت بها أم الشهيد في البيئة الفلسطينية ، وقد اكتفى برصد المشهد الخارجي دون التعمق في تفاصيله وجوانبه النفسية ، حيث استغنى بجلال القسم بأم الشهيد التي تردد الأناشيد الحماسية في موكب ابنها الشهيد عن تفاصيل هذا المشهد المؤثرة .
أما ثانيهما فتعلق برصد آثار الزلزال الذي تعرضت له مدينة نابلس عام ١٩٢٧م ، وقد احتلت المرأة فيه العديد من المشاهد الرئيسة التي تعكس آثار الزلزال المدمرة .

المرأة في شعره الغزلي :

اقترنت بداية فن الغزل في شعر إبراهيم بالبيئة اللبنانية التي ارتادها في الفترة التي يتشكل فيها فؤاد الإنسان وينضج إحساسه بالجنس الآخر ، حيث التحق بالدراسة في الجامعة الأمريكية ببيروت وهو في الثامنة عشرة من عمره . عام ١٩٢٣م . ، وكانت تجربته الأولى الناضجة في الغزل ، وهو طالب في السنة الثانية ، تجربة عامة اقترن فيها إحساسه بالمرض بإحساسه برقة المعاملة وفتنة الجمال ، فعبر عن صدق أحاسيسه وهو يذكر رقة الممرضات وحنوهن وسهرهن على راحة المريض ، وشرف هذه المهنة الإنسانية ([54]) ، كما صور حياتهن

([51]) عيبال : جبل يكتنف نابلس من الجهة الشمالية .
([52]) جرزيم : جبل يكتنف نابلس من الجهة الجنوبية .
([53]) الديوان ، ١٥٥ .
([54]) دخل إبراهيم مستشفى الجامعة الأمريكية ببيروت في ١٩ تشرين الأول ١٩٢٤م لإجراء عملية جراحية في

وتحركاتهن في أروقة المستشفى ، وما تثير هيئتهن ولباسهن الأبيض وخطراتهن في نفسه من ذكريات بهيجة ترتبط بحبه للحمام ([٥٥]) ، وما تشف عنه من تعلقه بمواطن الجمال المعنوية والمادية .. وقد برع إبراهيم رغم أنه لم يذكر ممرضة بعينها في تصوير أنموذج من النساء لم يسبقه إلى تصويره شعراء العربية ([٥٦]) ، أنموذج الممرضة المقيمة في المستشفي في أثناء عملها وفي أثناء فراغها ولهوها ، قال ([٥٧]) :

المعدة . راجع : شاعران معاصران ، ص٢٠.

([٥٥]) راجع : مقدمة الديوان ، ص١٦.

([٥٦]) تقول أخته فدوى في هذه القصيدة : " نظم إبراهيم قصيدته في الممرضات ، أو (ملائكة الرحمة) فكانت أول قصيدة لفتت إليه الأنظار في لبنان .. وإذا بالصحف تتناقلها ، نقلتها مجلة (سركيس) عن (المعرض) وعلقت عليها بقولها : ولعله أول من نظم شعراً عربياً في هذا الموضوع . . ، أما هذه القصيدة ، فهي وإن تكن قد قيلت في موضوع الممرضات ، غير أن قسماً كبيراً منها كان في وصف الحمام ؛ تلك الطيور الوديعة ، التي كان يغرم بها إبراهيم ، ويعنى باقتنائها وتربيتها ، أيام صباه . . ، ومن عجب ، أن يظل قلب إبراهيم خالياً من المرأة حتى ذلك الحين ، ولقد كان أصدقاؤه في الجامعة يعجبون لذلك ويقولون له على سبيل المزاح : أنت شاعر ولكن بلا شعور ، أين وحي المرأة في شعرك ..." . مقدمة الديوان ، ص١٨،١٦.

([٥٧]) الديوان ، ص١٣٩-١٤٠.

بيض الحمائم حسبهنَّهْ أني أردّدُ سجعهنَّهْ
رمزُ السلامة والوداعة منذ بدءِ الخلق هُنَّهْ
في كلِّ روض فوق دانيةِ القطوف لهنَّ أنَّه
ويَملْنَ والأغصانَ ما خَطَرَ النسيمُ بروضهنَّهْ
فإذا صلاهنَّ الهجيرُ هبنَ نحو غديرهنَّهْ
يهبطن بعد الحوْم مثلَ الوحي ، لا تدري بهنَّهْ
فإذا وقعن على الغدير ترتَّبتْ أسرابُهنَّهْ
صفَّيْن طول الضّفَّتين تعرَّجا بوقوفهنَّه
كلٌّ تقبّلُ رسمَها في الماءِ ساعةَ شُرْبهنَّهْ
يطفئْنَ حرَّ جسومهنَّ بغمسهنَّ صدورَهنَّهْ
يقعُ الرَّشاشُ إذا انتفضْنَ لآلئاً لرؤوسهنَّهْ
ويطرْنَ بعد الابتراد إلى الغصونِ مهودهنَّهْ
تُنبيك أجنحةٌ تصفّقُ كيف كان سرورهنَّهْ
ويُقرُّ عينَكَ عَبْثُهُنَّ ، إذا حثمن ، بريشهنَّهْ
وتخالهنَّ بلا رؤوس حين يُقْبلُ ليلهنَّهْ
أخفينها تحت الجناح ونمن ملءَ جفونهنَّهْ

كم هجنني ورويتُ عنهنَّ الهديلَ ، فديتهنَّهْ

***

الرَّوض كالمستشفيات ، دواؤها إيناسهنَّهْ
ما الكهرباء وطبّها بأجلَّ من نظراتهنَّهْ
مُرُّ الدواء بفيك حلوُ من عذوبة نطقهنَّهْ
مهلاً ، فعندي فارق بين الحمام وبينهنَّهْ
فلربما انقطع الحمائم في الدُّجى عن شدوهنَّهْ
أمّا جميلُ المحسنات ففي النهار وفي الدجنَّهْ

ومادمنا في إطار الحديث عن المرأة الممرضة فينبغي القول هنا بأنها ليست المرة الأخيرة التي يلتقي فيها إبراهيم بهذا الأنموذج من النساء ، إذ هيأ مرضه المزمن ([٥٨]) الأسباب لالتقاء الممرضات كثيراً ، لذلك لا عجب أن نراه قد تعلق بإحداهن بعد ذلك ([٥٩]) فقال تحت

([٥٨]) صمم في أذنه ، وقرحة في معدته ، واستعداد أمعائه لأنواع الالتهابات .

([٥٩]) يقول البدوي الملثم في ذلك : " وذات يوم لقي إبراهيم في إحدى عيادات الأطباء في نابلس ممرضة روسية حسناء درجت على حقنه بإبر تساعده على إزالة القرحة التي كانت أصل الداء ورأس البلاء ، فسحرته

عنوان إلى الممرضة الروسية ([٦٠]):

يا حلوة العينين يا قاسيهْ سرعان ما أصبحت لي ناسيهْ
أما أنا فلست أنسى يداً ناعمةً تجود بالعافيهْ
لئن شفى الطب ضنىً عارضاً فمهجتي أنتِ لها شافيهْ
وإبرة الآسي على نفعها أفعل منها نظرةٌ ساجيهْ
تبعثها عيناكِ في أضلعي فياضةً بعطفها ، آسيهْ
تلأم قلباً نَكَأَتْ جرحَه فعاد يهوَى مرة ثانيهْ
وتطفئ النار التي حُرِّكَتْ فأرجعتها زفرةٌ حاميهْ

قيصرة الحسن ألا اشتكي إليكِ من جوركِ يا طاغيهْ
هل كان نسيانكِ لي هفوة أم خطّة أشْراكُها خافيهْ
سيـدتي ، ذنبـكِ مهمـا يكـن تغـفــره أعـذارك الـواهيـهْ ...

إن علاقة إبراهيم مع المرأة الممرضة . عربية كانت أم أجنبية . هي علاقة محكومة دائماً بطبيعة نشأتها ، طبيعة العلاقة بين الممرضة والمريض ، وهذا أمر مألوف في وقتنا الحاضر حيث كثيراً ما يتعلق المريض بممرضته .. لذلك فإن صورة هذا الأنموذج من النساء تكون صورة مثالية محاطة بهالة من الإعجاب برقتها وعطفها ، إضافة إلى اشتمالها على أسباب الجمال التي تبرر افتتان الشاعر بها .

أما تجربة الحب الحقيقية في حياة إبراهيم فهي تجربته التي نشأت عام ١٩٢٦ في ربوع الجامعة الأمريكية ، فتملكت قلبه ، وعايشته طيلة حياته ، إنه الحب الأول الخالد الذي لم تنسه إياه كثرة الحسناوات اللواتي عرفهن إبراهيم ([٦١]):

أول عهـدي بفنـون الهـوى بيروت ؛ أنعم بالهوى الأول ..

إنها فتاة كفر كنه ماري الصفوري . أو م.ص كما كان يرمز لها . الطالبة التي التحقت بالجامعة الأمريكية في العام الدراسي ١٩٢٥-١٩٢٦ فخلبت قلب إبراهيم منذ وقعت عيناه عليها ، فأرسل فيها الشعر الرائق والغزل الصادق ، وتبع خطراتها وسكناتها حتى تهيأت له تدريجياً فرص الاقتراب منها والتعرف على صفاتها ، ففي طريقها إلى الجامعة قال وهو يرقبها من شباك مسكنه قصيدته الشهيرة " عند شباكي " التي مطلعها ([٦٢]):

عيناها الزرقاوان وفتنته أهدابها الجانية فنظم إبراهيم مقطوعة نشرتها جريدة فلسطين اليافية في عدد أسبوعي مصور " . الغواني في شعر إبراهيم طوقان ، ص٩٩.

([٦٠]) الديوان ، ص ١٣٠.

([٦١]) الديوان ، ص٢٢.

([٦٢]) الديوان ، ص٩٠.

بُكوري عند شباكي لأنْشق طيبَ ريّاكِ
ولا سلوى سوى نجوى أسرُّ بها لمغناكِ
أُسرِّحُ نحوه طرفاً أمنّيه بمرآكِ
وطرفاً في قرار " الدّار " (٦٣) موعوداً بلقياكِ
تمرُّ عليَّ ساعاتٌ أُشَيِّعُها بذكراكِ
وأخشى أن يرفَّ الـ جفنُ يحرمني مُحيَّاكِ

وهو في هذا النص لم يتمكن من تقديم صورة واضحة عن ملامح تلك الطالبة التي تملكت جهات قلبه ، وهذا أمر توضحه معاني القصيدة التي تشرح بدايات حبه لها ، وأنه مازال يرقبها عن بعد دون أن يتمكن من الحديث معها عن أمر حبه هذا ، وسنلاحظ وضوح صورتها المادية والمعنوية كلما اقترب منها ، فحينما يجلس قريباً منها في مكتبة الجامعة تتهيأ له الفرصة لرصد حركاتها ؛ وتفحص ملامحها ؛ وسماع صوتها ، وتصبح صورتها أكثر وضوحاً ، وتتطابق في فؤاده ملامحها مع الصورة التي رسمها لفتاة أحلامه ، حتى ثنيتها المثلومة وما نتج عنها من لثغة جعلت السين ثاء لم تزدها في نظره وسمعه إلا جمالاً (٦٤):

وغريرةٍ(٦٥) في المكتَبهْ بجمالِها متنقِّبَهْ
أبصرتُها عند الصبا حِ الغضِّ تشبه كوْكَبَهْ(٦٦)
جلستْ لتقرأ أو لتكـ تبَ ما المعلمُ رتَّبَهْ
فدنوْتُ أسْتَرِقُ الخطى حتَّى جلستُ بمقرُبَهْ
وحبستُ ، حتى لا أُرى ، أنفاسيَ المتلهّبهْ
ونهيتُ قلبي عن خفو قٍ فاضحٍ ، فتجنَّبَهْ
راقبتُها ، فشهدتُ أنَّ اللهَ أجْزَلَ في الهِبَهْ
حملَ الثَّرى منها على نورِ اليديْن وقَلَّبَهْ
وسقاه في الفردوس مخْ تومَ الرحيق وركَّبَهْ
فإذا بها مَلَكٌ تنزَّ لَ للقلوبِ المتعَبَهْ
وسمعتُ وهْيَ تُغَمْغِمُ الـ كلماتِ نَجْوى مُطْرَبَهْ
ورأيتُ في الفمِ بِدعَةً خلاَّبَةً مُستَعْذبهْ ..

---

(٦٣) " الدار هنا تعني الجامعة الأمريكية لأنهما طالبان في معهد واحد . ويمكن أن تعني " الوطن " لأنهما كليهما من فلسطين " شاعران معاصران ، ٨٥.

(٦٤) الديوان ، ص٩٢-٩٣.

(٦٥) الغرير : المغرور المعجب بجماله ، والجميل الذي لا تجربة له .

(٦٦) الضمير في كوكبه تعود على الصباح ، أي تشبه كوكب الصباح .

إحدى الثنايا النيِّراتِ بَدَ ت ، وليس لها شَبَهْ
مثلومةً من طرفِها لا تَحْسَبَنْها مَثْلَبَهْ
هيَ ، لو علمتَ ، من المحا سنِ عند أرفع مرتبهْ
هـيَ مصْدَرُ (السِّينـات) تُـكْ سِبُهـا صدىً مـا أعذَبَــهْ

وكلما اقترب إبراهيم من فتاته كلما انجلت صورتها على صفحات شعره ، طالبة جامعية يرصد خطواتها في طريق الذهاب إلى الجامعة والإياب منها ، وفي قاعة المكتبة ، ثم داخل الحرم الجامعي وهي تسأله عن بعض الدروس التي استغلقت على فهمها (٦٧):

وتُلْقينَ السُّؤالَ عليَّ في أمْرٍ تَعَدَّاكِ ..
وحين أُجيبُ تمنحنـي ابتسـامَ الشكـرِ عيناكِ

ثم نراه يتتبعها خارج الجامعة أينما حلت وارتحلت ؛ حتى وهي نائمة نراه يرقبها مستلقية فيستغرق في رصد مفاتنها وتحليل مشاعره تجاه ما يرى من جمالها (٦٨):

ما كنتُ أرغبُ أن أُسمَّى قاسياً فأُنَفِّرَ الأحلامَ من عينيْها
والشوقُ يدفعني إلى إيقاظها ويدي تُحاذرُ أن تُمَدَّ إليْها
وكأنما شَعَرَ الرقادُ بنعمةٍ فأقامَ غيرَ مفارقٍ جفنيْها
ويلٌ لقلبي كيف لم يَفْتِك به مرأى تقلُّبِها على جنبيْها
وتنهَّدتْ مما تكنُّ ضلوعُها يا شوقُ ويحكَ لا ترعْ نهديْها
حَسْبي جوىً أنّي نظرتُ لشعرها ينكبُ مرتشفاً نَدى خديْها
وأغارُ منه إذا اطمأنَّ بها الكرى ويُثيرُني متوسّداً زَنْديْها
أرنو بلهفة عاشقٍ لم يبقَ من صبر لديَّ ، وقد حنوتُ عليْها
فيصـدُّنـي أدبـي فأُبعـدُ هيبـةً وأودُّ لـو أجثـو على قدَمَيْها

وحينما تختفي عن ناظريه وتعود إلى قريتها (٦٩) ، نراه يسترجعها غادة بين حسناوات بيروت أيام

---

(٦٧) الديوان ، ٩١

(٦٨) الديوان ، ١٠٢ . وانظر : شاعران معاصران ، ص٩٩.

(٦٩) لم تواصل فتاة كفر كنه مسيرتها التعليمية في بيروت ، حيث قفلت راجعة لأسباب مجهولة لقريتها كفر كنه في فلسطين في نهاية عام ١٩٢٦م ، الأمر الذي أجج مشاعر إبراهيم فأرسل زفراته الحرى تباعاً في تصوير تباريح الهوى وإظهار مدى تعلقه بها ، وبعد أن أنهى دراسته في الجامعة الأمريكية عام ١٩٢٩ وعاد إلى فلسطين استغرق في البحث عن محبوبته حتى وصل حبل الوداد من جديد ؛ وأرسل أعذب الأشعار في تصوير مشاعره النبيلة وحبه الصادق ، وفي أثناء عمله مدرساً للغة العربية في الجامعة الأمريكية ببيروت ، من عام ١٩٣٠حتى ١٩٣٢ ، اقترن شاب فلسطيني من القدس . عام ١٩٣٠ . بها ، وفقد إبراهيم طوقان محبوبته ماري الصفوري . راجع : شاعران معاصران ، ص ٨٤-٩٩ . والغواني في شعر إبراهيم ، ص٣٣.

دراستها في الجامعة الأمريكية ، فيقول ([70]):

لو تنفعُ الذكرى ذكرتُ عشِيَّةً ... زهراءَ بين كواعبٍ أترابِ([71])
فيهنّ آسرةُ القلوب بحسنها ... ودلالِها وحديثِها الخلاّبِ
روحٌ أخفُّ من النَّسيم وخاطرٌ ... كالبرقِ مقرونٌ بحسنِ جوابِ ..
غرٌّ ثناياها وأشهد أنَّها ... ممزوجةٌ رَشَفَاتُها بشرابِ

ويعود إبراهيم طوقان لفلسطين ويبحث عن كفر كنه وغادتها التي تملكت جهات قلبه ، فيترسم خطى العشاق العذريين فيثير أصدق معاني الحب والوفاء للمحبوبة ويستعذب الحديث عن مواطن ذكرياته معها ([72]) ويرسل إبراهيم القصيدة تلو الأخرى في ذكر كفر كنه ومعالمها([73]):

أيا (وادي الرمان) ! لا طِبْتَ وادياً ... إذا هي لم تنعم بظلّك سرمدا
ويا (وادي الرمان) ! لا ساغ طعمُهُ ... إذا أنا لم أمْدُدْ لذاك الجنى يدا
ويا (وادي الرمان) ! واهاً !! وعندهم ... حرامٌ على المحزون أن يتنهَّدا
كأنّي لم أنزلْ ديارَك مرةً ... ولم ألْقَ في أهليك حباً ولا ندى

ولا ينسى أن يذكرنا ببعض صفات محبوبته كلما استدعى المقام تبرير شغفه بها ، من ذلك ما نراه في مطلع النص السابق من مثل قوله :

تباركَ هذا الوجهُ ما أوضحَ السنى ... وما أطيبَ المُفتَرَّ والمتورِّدا([74])

وإجمالاً .. فقد حظيت فتاة كفر كنه بالقسم الأكبر من شعره الغزلي ، وفي ظني إن سر تعلق إبراهيم بفتاة كفر كنه لا يرد إلى جمالها الفذ الذي صوره إبراهيم فيما رسم لها من لوحات كلية أو جزئية . البشرة البيضاء والوجه الذي يشبه نجمة الصبح والعينان النجلاوان وتورد الخدين وجمال المبسم وطيب الفم الذي يفوح بشذا البساتين وطول الشعر ، وحضور البديهة وحسن الحديث ، والدلال الذي يأسر القلوب .. . فجميع النساء في شعره الغزلي حسناوات يتمتعن بما تواضع عليه

([70]) الديوان ، ١٢٠.

([71]) اشارة إلى قول الله عز وجل : "إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا " سورة النبأ ، الآيات ٣١،٣٢،٣٣. وما تثير هذه المعاني في النفس من جلال فتعكس مكانة محبوبته في نفسه . والكواعب : جواري تكعبت أثداؤهن ، وهي جمع كاعب . والأتراب : المتساويات في السن ، وهي جمع تِرْب ، بكسر التاء وسكون الراء .

([72]) انظر : ديوان جميل بثينة ، ص١٥–١٨ دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٦.

([73]) ديوان إبراهيم طوقان ، ص١٠٤–١٠٥.

([74]) ما أوضح السنى : ما أشد صفاء بياضك . المفتر : الفم . المتورد : الخد .

الشعراء من مقاييس الجمال ، وقد رأينا ذلك في قصيدتيه ملائكة الرحمة وإلى الممرضة الروسية ، وسنرى مثل ذلك فيما سنذكر من صفات صواحبه الأخريات ، وإنما يمكن إرجاع الأمر إلى عدة أسباب منها : أنها أنموذج يختلف عن النماذج التي صادفها إبراهيم سواء في صباه أيام دراسته في مدرسة المطران في القدس التي لا يذكرها من الناحية الأخلاقية بالخير أبداً ([٧٥])، أو في بيروت بعد ذلك ، تختلف في كونها تمثل الجمال والأخلاق القروية ؛ وأنها غريرة ليس لها تجارب عاطفية كالغواني اللواتي ذكرهن في شعره ، وربما أيضاً لأنه عرفها في الغربة فامتزجت مشاعره تجاهها بمشاعر الحنين إلى فلسطين الوطن والأهل ..

وأيّاً كان الأمر ؛ فإن تعلق إبراهيم بفتاة كفر كنه لم يكن كتعلق الشعراء العذريين الذين أوصدوا أبواب قلوبهم على محبوباتهم ؛ ولم يدخلوها غيرهن من النساء ، كما أنه ليس كالشعراء القدماء الذين تحولت المحبوبات عندهم رمزاً يستغرق كل شعرهم ، إن إبراهيم إنسان واقعي في تفاعله مع الحياة وأحداثها ، لا يستطيع أن يقاوم فتنة الجمال مهما كانت الظروف والملابسات ، فكأنه يقول لكل حادث حديث ؛ ولكل مقام مقال ، لذلك لا عجب أن نراه بعد ذلك يعلن تهتكه في ثنايا ذكره لأنموذج مغاير ، أنموذج المرأة اللعوب ، التي نراها في مثل قوله ([٧٦]) :

أفدي بروحي غيدَ إشبيليهْ … وإنْ أذَقْنَ القلبَ صابَ العذابْ

*　　*

عَلِقْتُ منهنَّ بتِربِ النَّهارْ … وجهاً ، وصِنْوِ اللَّيْلِ فرعاً وعَيْنْ([٧٧])
في مثلِها يخلَعُ مثلي العِذارْ … ولا يبالي كيف أمسى وأينْ
أشربُ من فيها وكأس العُقارْ … معاً ، فكيف الصَّحْوُ من سكرتَينْ
لَهْفي عليها يومَ شطَّ المزارْ … وساقَها البيْنُ إلى " النَّيْرَبينْ "([٧٨])
ودَّعتُها ، ومهجتي مُشْفِيَهْ … لم يَشْفني رشفُ الثَّنايا العِذابْ([٧٩])
وَوَدَّعَتْ بالنظرةِ المُغْرِيَهْ … تصحبُ لُبِّي معها في الرِّكابْ

*　　*

يا أعْصُرَ الأنْدَلسِ الخالياتْ … قد فازَ مَنْ عاش بتلك الربوعْ
أهكذا كانت هناك الحياةُ … مترفَةَ الأيَّامِ ، ملءَ الضلوع ؟
أهكــذا الفتنــــةُ فــي الغـانيـــاتْ … ونشـوةُ الوصــلِ ، وحـَرُّ الولـوعْ ؟

([٧٥]) انظر : شاعران معاصران ، ص ١٩.

([٧٦]) الديوان ، ١٢٣-١٢٤.

([٧٧]) الفرع : الشعر .

([٧٨]) النيربين : قريتين سوريتين ، إحداهما قرب دمشق والثانية قرب حلب .

([٧٩]) مشفيه : قريبة من الهلاك .

إنها الراقصة الأندلسية " مرغريتا " . أو كما سماها الشاعر غادة إشبيلية . التي عرفها الشاعر وهي تؤدي رقصاتها الحمراء في أحد مقاهي بيروت ([٨٠]) ، وهي كما صورها واقعية الجمال، لهذا لا نراه يقف طويلاً على تصوير ملامحها ؛ إذ يكتفي بذكر بهاء وجهها وسواد شعرها وعينيها ، ثم يستغرق في ذكر خبرتها ونظراتها المغرية ، وكيف سقط منتشياً في بحر هواها .. ، ثم يعاودنا في نصوص أخرى بذكر ما يكابده من شوق إليها مسترجعاً ذكرياته معها ؛ رقصاتها ولياليها الحمراء..([٨١]).

كذلك انعكست على صفحة شعره صورة المرأة الجادة ، التي لم تطربها عبارات الثناء أو التوسل ، ولم تشجعه على الاقتراب منها ، فكانت في نظره قاسية جافيه ([٨٢]):

يا (فَوْزُ) ويْلي منكِ يا قاسِيهْ عذَّبتِني ظُلماً ، كفى ما بيهْ
أراكِ في اليوم ثلاثاً ولا أنَالُ إلاَّ النَّظرةَ الجافيهْ
واللهِ لو تدرين ما قصتي ما كنتِ عن حالي إذنْ راضيهْ

بل كنتِ لي عوناً على غربتي وكنتِ لي راحمةً آسيهْ

* *

مليكةٌ ما بين أترابها يا ليتني كنتُ مع الحاشيهْ
يا وردةً ترسلُ أنوارَها فيْضاً على الكون من الرابيهْ
يا ربَّةَ المنديل مِنْ تحتِه نَبْعَةُ حُسنٍ ثَرَّةٌ صافيهْ
نـاشـدتـُكِ الإســـلامَ لا تقتُـــلي أخـــاك في دينِـــكِ يـــا قـــاسيـــهْ

إنها أيضاً صورة واقعية لهذا الأنموذج من النساء اللواتي صادفهن إبراهيم في بيروت ، هذا الأنموذج الذي لم نر من صفاته إلا ما يشي بالحشمة والوقار ([٨٣]).

وهنالك أيضاً مَن يسميها " نزيهة " . ذات المنديل . التي تنتمي لهذا الأنموذج المحتشم من النساء ، وهي كسابقتها تتمتع بجمال صارخ دون تفاصيل ([٨٤]):

نزيهة ليس للمنديـ ـل فيما بيننا حاجةْ

([٨٠]) عرفها إبراهيم حينما كان أستاذاً في الجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٣٠-١٩٣٢ حينما قدمت قدمت لإحياء ليالي راقصة في المقهى الذي كان يرتاده في بيروت . انظر : شاعران معاصران، ص٩٢.

([٨١]) انظر : الديوان ، ١١٥ ، ١٢٧.

([٨٢]) الديوان ، ١٣١.

([٨٣]) إنها فتاة مسلمة يسميها إبراهيم فوز كان يلقاها في غدوه ورواحه ثلاث مرات كل يوم ، في مصيف بحمدون بلبنان ، في صيف عام ١٩٣٥، وقد أوحت له رؤيتها في الطريق بهذه القصيدة التي تظهر تعلقه بها . انظر : شاعران معاصران ، ٩٧.

([٨٤]) الديوان ، ٢١٦.

وإنْ سرَّك أن يبقى فأنوارك وهّاجهْ
فيا مَنْ تأمر الحسـ ـن فيلقي دونها تاجهْ
لقـد قطَّعـــتِ بالـدلِّ عـرى قلبـي وأوْداجـهْ

ومن هذا الأنموذج أيضاً ذات العصابة الزرقاء ، التي خلبت فؤاده بجمالها ، فوقف على بعض ملامح وجهها ؛ الجبين الوضاء والمقلة المكحولة والعين الحوراء ، دون تفاصيل ، إنما هي فتنة الجمال ([٨٥]):

روحي فداء عصابة زرقاءِ لَمَّت شعور مليحة حسناءِ
ما زيَّنَتْكِ وإنما زيَّنْتِها بجوارها لجبينك الوضّاءِ
ودُنوّها من مقلة مكحولة فتَّانةٍ ، فتَّاكةٍ ، حوراءِ
إنَّ الجمــال إذا تجمـَّع شمـلــــه فالـويـــل كـل الويـــل للشعـراءِ

تلك كانت أبرز نماذج النساء اللواتي ارتسمت صورهن في شعر إبراهيم طوقان ، أما ذكره للعديد من النساء في قصائد ومقطوعات شعره الغزلي ، فهو ذكر عام لا يقدم نماذج جديدة ولا يضيف صوراً وأبعاداً أخرى للنماذج التي رأيناها ، وإنما يستكمل بعض المشاهد الحياتية التي تظهر فيها المرأة بشكل واقعي رغم حرص شاعرنا على إبراز عشقه للجمال وتعلقه به أينما كان وأيّاً كانت الظروف ، من ذلك ما نراه في تغزله بجارته في مدينة رام الله " بهية " الفلاحة ؛ الذي منه قوله ([٨٦]):

" بها " يا جنّةَ الحسن ويا كوثرَه الصافي
ويـــا أفضـــــــلُ بيــــن الغيــ ـــد مـــن عشـــــــرة آلاف

ومثله أيضاً ما نراه في تغزله بفتاة رآها في الطريق أكثر من مرة فتعلق قلبه بها وبات يشكو تباريح الهوى ؛ وإعراضها عنه ، من ذلك قوله ([٨٧]):

تعلّقها قلبي ولم أَدْرِ ما اسْمُها ؟! وفي عيْنها ما بي وما سمعتْ باسمي !
وما كان إلاّ في الطريقِ لقاؤُنا ولحظٌ ـ كباقي الناس ـ يرْمي ولا يُصمي
أمَا عجبٌ ـ والأرضُ ملأى بمثلها ـ هُيامي بها دونَ الحسانِ على رغمي؟
أراها فلم أملِكْ تَهالُك واهنٍ بجنبيَّ مسلوبِ الجراءَةِ والعزمِ
فيخطفُ لوْني فرطُ ما أنا واجدٌ بها وبما يُلقي هواها على وهْمي
يُخَيَّـــلُ لـي أنِّـي دَنَـوتُ فـأعرضتْ فـأصرفُ وجْهي مُثْقَلَ الصَّدْرِ بـالغـــمِّ

أما مظهر المرأة وزيها فلم يحفل به إبراهيم إلا بالقدر الذي يظهر مفاتنها ، وقد رأينا ذلك في

([٨٥]) الديوان ، ٢١٧.
([٨٦]) شاعران معاصران ، ١٠٠.
([٨٧]) الديوان ، ١١٤.

حديثه عن الممرضات ، وذكره للمنديل والعصابة الزرقاء .. ، ولم يشتمل ديوانه على صورة أكثر وضوحاً للباس المرأة من هذه الصورة التي نراها في قوله ([٨٨]):

اليوم يوم الصبايا روافلاً " بالملايا "
لئن أثرن شجوني ففي الزوايا خبايا ..
لاحتْ وجوهٌ ملاحُ خلف الحجابِ صِباحُ
لكنْ بخلْنَ ، ولمّا بخلْنَ هبَّتْ رياحُ
هذا نقابٌ ، وهذا شَعر ، وهذا وشاحُ ..
فانصبَّ نورٌ وطيبٌ على القلوب انصبابا
كم للجمال مزايا وكم له من سجايا
لـولاك يـا ريـــاحُ كـــانت بيـــن الـزوايـــا خبـايـــا..

إنها صورة لشريحة من الفتيات اللواتي رآهن إبراهيم في الطريق ، تبين بطريقة واقعية جانباً من مظهر المرأة العام آنذاك .

وبعد .. تلك كانت صورة المرأة في شعر إبراهيم ، الوطني والغزلي ، وقد رأيناها في شعره لا تختلف كثيراً عنها في واقع الحياة في عصره ، حيث مثّل معظم النماذج التي رأيناها تدب على أرض الواقع ، الأمر الذي يؤكد ما ذهبنا إليه من أن المرأة في شعره امرأة واقعية وليست رمزاً ، نعم قد تكون ملاذه من المرض كما صرح بذلك في غير موضع من قصائده ([٨٩]) ، وقد تكون شدة تعلقه بالنساء ، وتعرضه لمعظم من صادفهن ، درباً من دروب التشبث بالحياة التي يطارده فيها هاجس المرض والموت ، وقد رأينا ذلك لا يفارق تفكيره حتى وهو في لحظات السعادة الغامرة ، وقد تجلى ذلك بوضوح في قصيدته غادة اشبيلية في مثل قوله ([٩٠]):

أرى الثّلاثين ستعدو بيَهْ مُغِيرةٌ أفراسُها في اقترابْ
وبعد عشرٍ يلْتوي عوديَهْ وينضَبُ الزَّيت ويخبو الشهاب
لا بدَّ لي إنْ عِشْتُ أن أعطِفا على ربى الأندلسِ النَّاضرة

لذلك رأينا أنموذج المرأة المعشوقة على اختلاف صورها هو الأنموذج الأكثر وضوحاً وانتشاراً في شعره .

([٨٨]) الديوان ، ١٣٣-١٣٤.

([٨٩]) انظر : الديوان ، ١٣٠، ١٣٩. ومن ذلك أيضاً ما نراه في قوله حينما سافر للعلاج في مصر :

و(الأزبكية) في الامساء راقصة لها غلال من شتى الرياحين
مالي وللسقم أخشاه واسأل عن طبيبه (وعماد الدين) يشفيني؟! (الغواني ، ص ٩٨.)

([٩٠]) انظر : الديوان ، ١٢٣-١٢٦.

المصادر والمراجع

- إبراهيم طوقان ، ديوان إبراهيم ، الطبعة الأولى ، دار الشرق الجديد ، بيروت ١٩٩٥م .
- إبراهيم العلم ، فدوى طوقان ، الطبعة الأولى . القدس ١٩٩٢م .
- ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف المصرية، ١٩٧٧م .
- البدوي الملثم ، الغواني في شعر إبراهيم طوقان ، دار الريحاني للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٥٧م.
- البدوي الملثم ، إبراهيم طوقان في وطنياته ووجدانياته ، الطبعة الأولى ، المكتبة الأهلية ، بيروت ١٩٦٤م.
- خليفة التليسي ، الشابي وجبران ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٤م .
- زكي المحاسني ، طوقان شاعر فلسطين في حياته وشعره ، الطبعة الأولى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٥٥م .
- عبد الرحمن رباح الكيالي ، الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، لطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧٥م .
- عبد الرحمن ياغي ، حياة الأدب الفلسطيني الحديث ، الطبعة الثامنة ، دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨١م
- عبد الرحيم محمود ، الديوان ، طبعة دار العودة ، بيروت ١٩٨٧م .
- عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) ، ديوان أبي سلمى ، طبعة دار العودة ، بيروت ١٩٨٩م .
- عمر فروخ ، شاعران معاصران ، الطبعة الأولى ، المكتبة العلمية . بيروت ١٩٥٤م .
- غازي الخليلي ، المرأة الفلسطينية والثورة ، بيروت ١٩٧٧م .
- الفجر الأدبي ، مجلة أدبية شهرية تصدر في القدس ، العدد ٣٥ ، شهر آب ١٩٨٣م .
- فدوى طوقان ، الديوان ، الطبعة الأولى ، دار العودة بيروت ١٩٧٨م .
- قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، الطبعة الأولى ، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٩٧٩م .
- كامل السوافيري ، الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر ، الطبعة الأولى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٣م .
- كامل السوافيري ، الأدب العربي المعاصر في فلسطين ، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٩م .
- المتوكل طه ، الساخر والجسد . إبراهيم طوقان . ، الطبعة الثانية ، نابلس ١٩٩٤م .

- محي الدين الحاج عيسى ، ديوان من فلسطين وإليها ، الطبعة الأولى ، المطبعة السورية – حلب ١٩٧٥م .
- مطلق عبد الخالق ، ديوان الرحيل ، طبعة دار المستقبل العربي ، القاهرة (بدون) .
- نبيل بدران ، الريف الفلسطيني قبل الحرب العالمية الأولى ، مجلة شؤون فلسطينية ، "مجلة شهرية تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية . بيروت" ، العدد٧ ، مارس ١٩٧٢، ص١١٦.
- هاشم صالح مناع ، القضايا القومية في شعر المرأة الفلسطينية ، الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٨٤ .
- هاني حوراني ، ملاحظات حول أوضاع الطبقة العربية العاملة في فلسطين في عهد الانتداب ، مجلة شؤون فلسطينية ، العدد الخامس ، نوفمبر ١٩٧١، ص١١٩.